



في ثرثرته الطويلة مع جلسائه وزواره، المقربين، كان الرئيس حافظ الأسد يعتذر عن إبقاء الجولان جبهة صامتة، بالحديث عن «استراتيجية التوازن».

فهو لن يخوض حربا مع إسرائيل، إلا عندما يتوفر التوازن العسكري معها، من حيث التسليح والتدريب.

يضيف الأسد بأن الجولان تبادلتها الأيدي أكثر من مرة خلال حرب أكتوبر (1973).

وكان بإمكان السوريين استعادتها بشن هجوم معاكس آخر. لكن قبلوا بوقف إطلاق النار باكرا، لإنقاذ القوات المصرية من الحصار. تطورت القوات السورية تسليحا وتدريبيا منذ تلك الحرب.

لكن التوازن الاستراتيجي لم يتحقق. وربما اختل لصالح إسرائيل، أكثر وأكثر بعد انهيار الاتحاد السوفييتي (1989 / 1991). في المقابل، انهارت نظرية الأمن الإسرائيلي. باتت إسرائيل تحسب بدقة حساب الحرب مع العرب. وحلت نظرية «الردع» محل نظرية «الأمن»، وذلك بالاكْتفاء بوخز الإبر: عمليات تخريبية خاطفة خلف الخطوط، لا تستدعي بالضرورة حربا، أو ردا من الجانب العربي، حسب التصور الإسرائيلي.

كانت نظرية التوازن من ابتكار الفكر «الاعتذاري» عند الأسد.

وقد اعتدت إسرائيل مرارا على سوريا في عهد الأب والابن. وكان الرد بأن الاستفزاز (المهين) لن يجرهما إلى الاشتباك. وأنهما هما اللذان يحددان التوقيت. ولم يأت هذا التوقيت أبدا. وقد فضحت الثورة السورية التطوير والتسليح. فتبين أنهما كانا لضرب ملايين السوريين بالمدافع. والدبابات. والطيران. والصواريخ. وليس أبدا إسرائيل.

في الأربعاء الماضي، هاجمت إسرائيل سوريا بشار. وهي المرة الرابعة التي تهاجم فيها إسرائيل سوريا، في عهد بشار. وتطوع بشار بالرد التقليدي إياه. في الحساب السياسي، كان النظام العلوي هو المستفيد من العدوان الإسرائيلي. فقد خرجت مزیکا فرقة الدعاية (حزب الله. إيران. روسيا. أنصار الممانعة) لتقول إن إسرائيل اعتدت، فيما كان النظام في ذروة الاشتباك مع الإرهابيين.

يل ربما كان مجيء سعيد جليلي إلى دمشق وبيروت، قاطعا حضوره لمؤتمر الأمن في ميونيخ، لمفاتيحة بشار بفكرة الرد هذه

المرّة. لأنّها فرصة لشدّ عزيمة النظام، وإنقاذه أمام المسلمين والعرب من الانهيار التام. جليلي مدير مكتب الأمن الإيراني لدى خامنه ئي وحده يعرف ما إذا كانت إيران جادة في الرد. وقد فاجأت الغرب بالإعلان عن تجنيد مزيد من أجهزة الطرد المركزي، في إثراء مزيد من اليورانيوم.

هل يتجاوب بشار؟ هل يغامر؟ إلى الآن، كان «حزب الله» هو الذي يغامر بالرد بأمر من إيران. في المغامرة الأخيرة (2006)، قتل 1200 شيعي لبناني. هذه المرّة جاء الدور على بشار، حسب الترتيب الإيراني لفرقة مزيكا الممانعة، وهو على هذه الحالة من الضعف والاهتراء.

بعد الحرب الإسرائيلية في لبنان (1982)، اعتمد نظام الأسد الصاروخ والكيماوي في التطوير الدفاعي للقوات السورية.

وكدس في مستودعاته عشرات ألوف الصواريخ، من كل الأحجام والأنواع. وقبل الغارة الإسرائيلية الأخيرة، بدأ حشو صواريخ إس - 17 أرض / جو بالكيماوي. وقالت إسرائيل إنها كانت متوجهة إلى حزب الله في لبنان. هل كان بشار يعتزم تسليم حزامه الكيماوي إلى الحزب الإيراني، قبل أن ينهار نظامه؟ أم هو يريد استخدام الحزب مرة أخرى في ملهاة الممانعة؟ أم هو يعتزم مع الحزب إلهاب وتفجير المنطقة كلها، كما هدد ووعده، بعد انفجار الثورة؟ في ضرب الأخماس والأسداس، في متاهة الحرب واللاحرب الجارية حالياً، أترك أصحاب القنابل النووية والصواريخ الكيماوية، وأزور مُعاز الخطيب شيخ شباب حارة «الائتلاف» السوري المعارض، لأسأل فضيلته، عما إذا كان جادا هو الآخر، في عرضه التفاوض مع نظام بشار؟

إذا كان جادا، فهل تجوز في شرع فضيلته توبة بشار؟ هل يغفر له بعد سقوط أكثر من 60 ألف شهيد بينهم أطفال؟ هل يمكن التوصل إلى اتفاق ينزع قبضة العائلة.

والطائفة، عن الجيش. والحزب. وأجهزة الأمن. والإدارة الحكومية؟ هل يمكن بناء دولة ديمقراطية مسالمة. شريفة. ونزيهة، مع بقاء هذا النظام طرفا في اتفاق جاد؟

هناك اعتراض عاصف في تنظيمات الثورة السياسية والمسلحة، في الداخل والخارج، على مبدأ التفاوض. هل الثورة في انحسار. في جمود، بعد الهجوم المضاد الأخير للقوات النظامية؟

أمر غريب والثورة تستكمل في مارس (آذار) المقبل عامها الثاني، من دون أن يصدر ميثاق ثوري، إن لم يجمع التنظيمات الثورية، فهو على الأقل، يحدد نظريا الأهداف. والأدوات. ويحسم المواقف!

هل فضيلة الشيخ الخطيب متفائل. متشائم. متشائل، على طريقة الفلسطيني الراحل إميل حبيبي؟

بعد لقاءات الشيخ الأخيرة مع الأصدقاء والوسطاء البيض. والخضر. والسمر، ماذا كانت النصيحة؟

وماذا كانت النتيجة؟

لماذا رحب الفرنسي فاييوس. والتركي داود أوغلو. والروسي لافروف. والأردني ناصر جودة، بحكاية التفاوض؟ إذا سمح لي فضيلته، فسأتمهل قليلا عند الوزير ناصر جودة. أعرف أنه رجل الثقة. وقد خبرت اهتمامه. وشكرت اتصاله. وجوابه عن شكوى قديمة لي. أريد أن أسأله:

- لماذا نصب مخيم الزعتري في ذلك المكان الموحش القريب من الحدود؟!

فهو حريق في الصيف. غريق في الشتاء. ربما كان أسهل إقامة. وأرخص كلفة. وأرحب ضيافة، لو أنه حل في ظاهر المدن الأردنية. واستفاد من خدماتها.

هناك اليوم أكثر من 300 ألف لاجئ سوري في الأردن.

اللاجئون الحوارنة ليسوا بغرباء. فهم يمتّون بقرابة العشييرة للأردنيين. وأحفاد العوائل التجارية الدمشقية التي شاركت، منذ

مائة عام، في تأسيس الدولة الأردنية، يملأون أسواق عمان والمدن الأردنية، كجزء لا يتجزأ من المجتمع الأردني، وكمواطنين أردنيين أصلاء.

أعرف، يا سيادة الوزير، أن الأردن بلد فقير. لكنه سمح. مضياف. فهو عربي أصيل. شارك في تحمل نكبات العرب. ولا أدري لماذا هذا الخلل في سوء الخدمات المقدمة لهؤلاء اللاجئين، مع أن معظم المساعدات أتت من دول شقيقة في الخليج. هؤلاء البؤساء في الزعتري لم يأتوا من الصحراء. أتوا من مدن مزدهرة. وبيوت عامرة هدتها أيدٍ آثمة. وما زال ألوف من شبابها يقاتلون في شوارعها.

لم تلحقني، بعد، موجة التعصب. الأردن في قلبي. كما الشام. والخليج. والعراق. ولبنان... لا ألوم، يا سيدي، ولا أسألك في السياسة. ولا لماذا يرحب الأردن أو يرفض تفاوض الشيخ الخطيب مع بشار. إنما أسألك عن أهلك. عن 300 ألف إنسان هم في محنة.

ولا أقول في مذلة. وأنشد جواباً منك، ليس بدبلوماسية وزير للخارجية، إنما بصراحة ناصر جودة عندما كان وزيراً للإعلام.

الشرق الأوسط

المصادر: